من تراب الطريق (٣٥٦)

لا أمن ولا سلام(*) مع اليأس والقهر !

أحكم وأصدق وأعقل ما أبداه الرئيس أوباما ، تحذيره مؤخرا للإسرائيليين بأنهم لن ينعموا بالأمن ما دام الفلسطينيون فى وضع يائس . هذا التحذير أمسك ـ واعيا أو غير واع ـ بجوهر القضية التى تاه مفتاحها من الإسرائيليين قبل غيرهم ممن يناصرونهم ربما ليتخلصوا من مشاكلهم !

لن يتحقق الأمن لإسرائيل بترسانتها النووية ، ولا بقواتها العسكرية ، ولا بحروب الإبادة والتهجير ، ولا بغارات النسف والتدمير ، ولا بهدم الأبنية أو إقامة المستوطنات أو بناء الجدار العازل .. ولن يتحقق لها الأمن بدعم الولايات المتحدة ومن يجرى مجراها ، ولا بمصانعات الأنظمة العربية التى باعت القضية وغرقت فى بئر التطبيع ، ولا بالخلاف والتناحر بين فتح وحماس ، ولا بتشرذم الشتات الفلسطينى ، فذلك كله مهما علا واشتد وثقلت وطأته ، ومهما بث من إحباط وربما يأس ، لن يحقق الأمن لإسرائيل ، بل على العكس !

هذا الوضع المستفز قد يوئس ، ولكنه لا يميت ، ولا يعقم ما يعتمل فى الأرحام من غضب وسخط تتوارثه الأجيال ، وتتنامى به عناقيد الغضب ..

(*) المال ١١/ ١١/ ٢٠٠٩

موازين المصالح الدولية ليست أبدية ، وما يحكمها اليوم قد يتغير باكر ، وبقاء الأنظمة العربية التى انفصلت عن قواعدها وباعت القضية ، هو بقاء موقوت مهما طال ، ومن المحال أن يبنى أمان على أوضاع متغيرة أو قابلة للتغير أو التغيير .. وإسرائيل لا تحتمل ما قد يطرأ عليها من تغير ، بينما الشعب الفلسطينى يملك الزمن والإيمان بالحق والمصير ، وتتوالد أجياله حاملة بذور الغضب مع مرارة اليأس والشعور بالظلم .. وهذا هو الحساب الغائب عن المنظور الإسرائيلى الذى يغره ما تمتلكه اسرائيل اليوم من أوضاع محلية ودولية فضلا عن ترسانتها النووية وفيالقها العسكرية وقواعدها الصاروخية والجوية وقنابلها العنقودية وغيرها من أسلحة الدمار الشامل !

ربما قامت السياسة الإسرائيلية على أن الإحساس بالخطر هو حافز التماسك الإسرائيلى والواقى من تفرق اليهود فى الداخل والخارج .. ولكن هذا النظر قصير ، وامتلاك استمرار تأثيره بالغ الصعوبة ومعرض للارتداد إلى نقيضه وسط حسابات بالغة التعقيد جعل بعضها يتسرب وتتداعى تأثيراته على غير حسابات المخطط الإسرائيلى !

ما لا يدركه الصلف الإسرائيلى أن العنف يولد العنف ، وأن تراخى رد الفعل لا يعنى أن قانون رد الفعل معطّل .. أو أنه انسحاب أبدى أمام الظلم والقهر .. مآسى ومذابح التاريخ وأعمال العنف والقتل والإبادة ، تُنَمّى فى المقابل عوامل السخط والمقاومة .. وكلما طال انطواء القلوب على الجراح كلما تنامى الغضب وتوالد العداء وقويت واشتدت أسبابه ،

واستبمدت مشروعية أمام النفس والغير فى المقاومة والرد .. ليس معنى خلل الموازين الدولية أن العالم لا يرى ولا يدرك ولا يفهم ، أو أن الأمل فيه معدوم .. من يتأمل فى تقرير القاضى جولد ستون الذى أدان إسرائيل فى حربها الغشوم على قطاع غزة بالعديد من الجرائم ضد الإنسانية .. من يتأمل هذا التقرير وما ورد فيه خلافًا لما تريده إسرائيل وأشياعها . يعرف أن تجاهل العالم ظاهرى ، بل إن ذات عبارة الرئيس الأمريكى المحذرة أو الناصحة لإسرائيل ، تفصح عن تسليم ضمنى بأن ما يحدث غير عادل ويولد ما يستحيل معه على إسرائيل أن تنال الأمن .. لا يتحقق الأمن فى أرض مخضبة بدماء شعب بأكمله ، وتحت ثراها أجداث الشهداء من الأطفال والنساء والشيوخ والرجال .. وعلى سطحها آثار النسف والتدمير والتجريف، وأعمال استيطان مستفزة ، وتطاول على قدسية المسجد الأقصى والمقدسات الإسلامية ..العمليات الانتحارية ـ وإن تباعدت الآن ـ ما هى إلاّ رد فعل فى لحظة يأس من إحساس شعب بالقهر والتآمر على حياته ومصيره .. فإذا عزّ على إسرائيل أن تدرك ذلك فى حالة غطرسة القوة التى تعيشها ، فإن الشعب الفلسطينى بخاصة ، والعربى بعامة ، يدرك أن دوام هذا الحال من المحال ، وأن الجلد تعقبه انتفاضة حياة ، طالما استطعنا لملمة إرادتنا وعزمنا من براثن الأشجان والأحزان ، وجاوزنا وهدة الحاضر ومظالمه ، وصدق أبو القاسم الشابى حين قال للشعوب مستنفرا :

«إذا الشعب يوما أراد الحياة : فلا بد أن يستجيب القدر» !